

اجتهادات بؤساء هذا العصر

قبل نحو قرن ونصف قرن، قدم الأديب الفرنسي المبدع فيكتور هوجو رؤية روائية عميقة لقضية الظلم الاجتماعي في رواية البؤساء. وليست هذه الرواية الوحيدة التي فاقت أهميتها عشرات الأعمال العلمية والفكرية في معالجة إحدى القضايا الكبرى. ولكن معالجة البؤساء قضية الظلم الاجتماعي تتميز بأنها عابرة للزمن، ومعبرة عن هذه القضية حتى اليوم، رغم أن التغيرات التي حدثت في فرنسا والعالم أكثر من أن تُحصي.

لا يشبه بطل الرواية جان فالجان، الذي سُجن لأنه سرق خبزاً لأخته وأطفالها حين كانوا يتضورون جوعاً، ولم يجد مكاناً يؤويه عندما أُطلق سراحه، أى من الفرنسيين الذين ينظمون منذ أيام احتجاجات واسعة النطاق ضد ما يرونه ظلماً اجتماعياً، سواء المزارعون الذين تتدهور أوضاعهم، أو العمال والموظفون الذين يرفضون تغيير ظروف العمل وتعديل قانون التقاعد. ولكن ما يجمعه وكل واحد من هؤلاء الأثر الذي يُحدثه الظلم الاجتماعي في وجدان الإنسان، وليس في حياته فقط.

أبدع هوجو في التعبير عن هذا الأثر الوجداني في داخل فالجان، وبدا كما لو أنه غاص في أعماق بطل روايته قبل أن تظهر مقدمات علم النفس الاجتماعي في نهاية القرن التاسع عشر، ويُنشر أول كتاب أساسى فيه للإنجليزى ويليام مكدوجال عام 1908.

والأكيد أن طبيعة الأثر الذي يحدثه الظلم الاجتماعي في وجدان الإنسان اختلف كثيراً جداً اليوم عنه في الفترة التي تغطيها رواية البؤساء بين العقدين الثاني والرابع في القرن التاسع عشر. فقد تراكمت تداعيات تحولات مهولة بين عصرى الثورة الصناعية الأولى، والثورة الرابعة، بما فى ذلك أنماط الظلم الاجتماعي، والفئات والشرائح المظلومة، نتيجة تغيرات عميقة فى بنىات الاقتصاد وهياكل المجتمعات.

ولكن أياً من الروائيين المعاصرين لم يهتم بهذا الموضوع، رغم الحاجة الملحة إلى عمل روائى عن الأثر الوجدانى للظلم الاجتماعي فى عالم اليوم. والأرجح أن أى عمل متقن فى هذا المجال سيكتب له الخلود، مثل رواية البؤساء. ويمكن لأى روائى بارع أن يجد فى الاحتجاجات الفرنسية الراهنة نماذج إنسانية كثيرة تلهمه عملاً بديعاً عن أثر الظلم الاجتماعي فى وجدان بؤساء عصرنا.